أدب الفقهاء

- ١١ -

الرثاء :

وسبيل الفقهاء في الرثاء هو سبيلهم في المدح ، إنما يرثون من يحظى بحبهم وتقديرهم كذَوي قرباهم ومَشْيَختهم من أهل العلم والدين ، أو من يُحقِّق مرادَ الشرع في إعلاء كلمة الله ونشر ألوية العدل والسلام بين الناس من القادة والملوك المصلحين . فرثاؤهم ينبعث عن عاطفة صادقة ولا يكون مجاملة ولا تكلفاً . حتى ان أحدهم وهو الشيخ رضوان الجَنْوي قال في أبيات له مُعيِّناً من يستحق الرثاء من الأموات :

إذا شئت أن تبكي فقيداً من الورى ... وتندبه بعد النبي المكرم
فلا تبكينْ إلا على فقد عالم ... يُبادر بالتفهيم للمتعلم
وفقد إمام عادل قام ملكه ... بأنوار حكم الشرع لا بالتحكم
وفقد شجاع صادق في جهاده ... وقد كُسِرت راياتُه في التقدم
وفقد كريمٍ لا يملُّ من العطا ... ليطفئ بؤس الفقر عن كل مُعدِمِ
وفقد تقيٍ زاهد متورع ... مُطيع لرب العالمين معظِّم
فهم خمسة يُبكَى عليهم وغيرُهم ... إلى حيث ألقت رحلَها أم قشعم

وتَردَّد تعيينُ هذا العدد في أبيات أخرى لغيره . وبعضهم اقتصر على ثلاثة من الخمسة : وهم العالم والشجاع والجواد . والواقع أن هؤلاء الأصناف الخمسة هم أكثر من تتناوله المَرثاةُ العربية بإطلاق ، سواء أكانت للفقهاء أو لغيرهم ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

إنما إذا غلب على مراثي الشعراء أن تكون في الملوك والقادة والأجواد ، فان مراثي الفقهاء أكثر ما تكون في الصِّنْفَيْن الباقيين أعني العلماء والزهاد .

والمهم هو طريقة التناول ، فقد اشتهر أن بعض الشعـــراء سُئل : لِمَ كانت أمداحكم أجود من مراثيكم ؟ فأجاب : لأننا إذا مدحنا قلنا على الرجاء ، وإذا رثينا قلنا على الوفاء ، وبين الباعثين بَوْن ، وهذا الكلام إن صحَّ تنزُّله على الشعراء ، فانه لا يتنزل على الفقهاء ، لأن أمداحهم كما رأينا في باب المدح ليس باعثها الرجاء ، وهي لا تقل جودة عن أمداح الشعراء ، فكذلك مراثيهم ليس باعثها الوفاء فقط ، ولكنْ الإيمان بشخصية المرثي والشعور بعظم الفاجعة فيه ، فهي لا بد أن تجود كما جادت الأمداح ، ولا تضعف لضعف الباعث كما قال الشاعر .

هذا ولما كانت التعزية من الرثاء وهي سابقة والرثاء لاحق ، رأينا أن نقدم أمثلة من قولهم فيها ثم نعقب عليها بأقوالهم في الرثاء .

فمن ذلك ما كتب به الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز تعزية في ابنه عبد الملك :

وعُوِّضتَ أجراً من فقيد فلا تكُنْ فقيدُك لا يأتي وأجرك يذهب

وكتب ابن عبد الحكم الفقيه المصري إلى الإمام الشافعي يعزيه في ميت له :

إنا مُعَزُّوك لا أنا على ثقـــة من البقـاء ولكن سنة الدين

فما المُعَزَّى بباق بعد ميتـــه ولا المُعزِّي ولو عاشا إلى حين

وهذان البيتان نُسبا لغير واحد من قَالَة الشعر ومن المتمثلين بها ، والأشبه أن يكونا لفقيه مثل ابن عبد الحكم ، فان نفَس عالم الدين يلوح عليها ، وكذلك رأيناهما منسوبين إليه تعزيةً للشافعي بخط أحد العلماء الأثبات .

ولما نُعي الحافظ الدارمي إلى البخاري أنشد معزياً فيه نفسَه :

إن عشتَ تُفجعُ بالأحبة كلهم وبقاءُ نفسك لا أبا لك أفجع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكتب القشيري تعزية في شيخ الإسلام أبي عثمان الصابوني :

وقالوا الإمام قضى نحبه وصيحة من قد نعاه علت
قلت فما واحد قد مضى ولكنه أمة قد خلت

وكتب الصاحب أمين الدولة إلى الوزير برهان الدين يعزيه في ولده :

قولا لهذا السيد الماجد قولَ حزين مثله فاقد
لا بد من فقد ومن فاقد هيهات ما في الناس من خالد
كن المعزَّى لا المعزِّى به إن كان لا بد من الواحد

وللقاضي شهاب الدين بن الفضل يعزي تقي الدين السبكي في والدته :

كل امرئ منا سيلقى الردى بذمه إن شاء أو حمده
فاسمع أبا الفتح وُقيتَ الردى ولا استطرت النار من زنده
مثلك من يلقى الردى صابراً محتسباً للأجر في فقده
فقدتَ أماً بَرَّةً لم يزل كوكبها المشرق في سعده
ماتت وأبقت منك فينا فتى كمثل ماء الورد من ورده

ولأبي سالم العياشي معزياً بفقد النبي (ﷺ) :

وما نحن إلا عشبة الموت أنبتت بأرض الردى فالنبت ذاوٍ ومُحصَد
ولو كان حي يستجاز بقاؤه لكان به أولى النبي محمد

ومثله قول بعض العلماء :

فلو كانت الدنيا تدوم لأهلها لكان رسول الله حياً وباقيا

ولما مات العلامة عبد القادر بن شقرون من علماء فاس قال الناس قد ذهب العلم ، فأنشد سليمان الحوّات هذين البيتين :

يقولون إن العلم غاضت بحاره وأصبح هذا الغربُ من أهله قفرا
فقلت لهم في التاوُدِيِّ بنِ سُودَةٍ وأعقابه ما يملأ البر والبحرا

وهي تعزية بمن بقي عمن ذهب ، وفيها غاية المدح للشيخ التاودي بن سودة ، وكان شيخ الجماعة في وقته ، فهو جدير أن يتعزى به الناس .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهذه التعازي على اختلاف مراتبها في الإحسان تضاهي أحسن التعازي التي تتضمنها كتب الأدب لفحول الشعراء ، ففيها ما تغلب عليه النزعة الدينية من الترغيب في الأجر والحث على الصبر ، وما تتخلله النظرة الفلسفية للموت ، وما يتردد فيه نفسُ الشعر الجاهلي ، وكذلك هي تعازي الشعراء من غير الفقهاء على اختلاف في الصياغة وتفاوت في درجات الإحسان .

وأما المراثي التي قالها أدباء الفقهاء على الوجه الذي ذكرنا فإنا نأتي منها بأغاط مختلفة تنبئ عن قوة عارضتهم وتفننهم في هذا الغرض ، وإن كنا سنجتزئ بالقليل عن الكثير ، لأن تتبع ذلك يطول .

فمن مرثية لمحمد بن عبد الرحمن البغدادي المعروف بأبي الحسن الصالحي في الإمام مالك :

سقى الله ما ضم النبيَّ محمداً ... من الأرض ما يسقي الغمامُ الهوامع
وجاد لقبر فيه أكفانُ مالك ... أفاوقُه والمُسبلاتُ الدوافع
فنعم إمام العلم والكوكب الذى ... أتى نوره في صفحة الدين ساطع
عقيد الهدى فينا ومصباح ديننا ... ومَن قوله بالحق والرشد واقع
ومَن عُروة الإسلام في بطن كفه ... هي العروة الوثقى وبالنصح صادع
فان لم تكن فيما قضى الله صاحباً ... فانك للأميِّ بالحق تابع
أقمت لنا دين النبي محمد ... وجاريْه والصِّهْرَيْن مذ أنت يافع
وعلمك أعلى العلم فرعاً ومخرجاً ... كذا كل علم دونه متواضع
لعمري لقد أورثتنا العلم خالصاً ... وقد أوحشت منك الديار البلاقع
نقلت إلينا عن مصابيح ديننا ... بتوفيق ربٍّ فضلُ جدواه واسع
فان لم تكن فينا فعلمُك بيننا ... ندافع عنه من جفا ونصارع
بكل بيان من كتاب وحجة ... لها من قلوب المؤمنين مواقع
ستبكيك أرض الناس والناس فوقها ... وتبكيك في الجو النجوم الطوالع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولابن دريد في الإمام الشافعي مرثية من هذا البحر وهذه القافية يقول فيها :

ألم تر آثار ابن ادريس بعده ... دلائلهـــا في المشكلات لوامع
معالم يفنى الدهر وهي خوالد ... وتنخفض الأعلام وهي فوارع
مناهج فيها للهـــدى متصرف ... موارد فيهـا للرشاد شرائع
ظواهرها حكم ومستنبطاتها ... لما حكم التفريق فيه جوامع
لرأي ابن إدريس ابن عم محمد ... ضياء إذا ما أظلم الخطب ساطع
إذا المعضلات المشكلات تشابها ... سما منه نور في دُجاهن لامع
أبى الله إلا رفعَه وعـــلوه ... وليس لما يُعليه ذو العرش واضع
تسربل بالتقوى وليداً وناشئاً ... وخص بلُبّ الكهل مذ هو يافع
وهُذّب حتى لم تُشر بفضيلة ... إذا التُمِست إلا إليه الأصابع
فمن يك عـــلم الشافعي امامه ... فمرتَعُه في باحـة العلم واسع
سلام على قبر تضمن جسمه ... وجادت عليه المدجنات الهوامع
لئن فجعتنا الحادثات بشخصه ... لهن لما حكمن فيه فواجع
فأحكامه فينـــا بدور زواهر ... وآثاره فينـا نجوم طوالع

ولابن دريد أيضاً يرثي الإمام محمد بن جرير الطبري ، من قصيدة طويلة :

أودى أبو جعفر والعلم فاصطحبا ... أعْظِمْ بذا صاحبا وذاك(١) مصحوبا
إن المنية لم تُتلف به رجُلاً ... بل أتلفت علَماً للدين منصوبا
كان الزمان به تصفو مشاربه ... فالآن أصبح بالتكدر (٢) مقطوبا
كلا وأيامِه الغُرّ التي جعلت ... للعـلم نوراً وللتقوى محاريبـا
لا ينْسرِي الدهر عن شِبْه له أبداً ... ما استوقف الحج بالأنصاب أركوبا
تجلو مواعظه رينْ القلوب كما ... يجلو ضيـاء سنا الصبح الغياهيبا
ودّت بقاع بلاد الله لو جُعلت ... قبراً له فحبَاها جسمُه طيبا

(١) لعلها : أو ذاك .
(٢) لعلها : بالتكدير . (لجنة المجلة)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ورثاء ابن دريد لهذين الإمامين دليل على ما قلناه من أن مراثي العلماء إنما تكون لأمثالهم من أهل العلم والدين ، وباعثها حينئذ هو التقدير والإعجاب والاعتراف لهم بالجميل لما أسدوه للأمة من خدمة عظيمة في هدايتها إلى معالم الرشد وفتح أعينها على مصادر النور ، وبذلك يكون الرثاء صادراً عن شعور عميق بالفاجعة ومصوراً للفراغ الهائل الذي يتركه هؤلاء الأعلام الراحلون في حياة الأمة العلمية والدينية ، إذ قلما يُخلِّفون وراءهم من يَسُدّ مَسدَّهم ويفْرِى فَرِيَّهم .

وقال اليزيدي يرثي الكسائي ومحمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة وكانا قد خرجا مع الرشيد إلى خراسان فماتا في يوم واحد بالريّ ، وصلى الرشيد عليهما وقال دفنت الفقه والنحو في الري ، وهذا رثاء اليزيدي فيهما :

تصرمت الدنيا فليس خلود ... وما قد ترى من بهجة سيبيد
سيُفنيك ما أفنى القرون التي خلت ... فكن مستعداً فالفناء عتيد
أسِيتُ على قاضي القضاة محمد ... فأذْريتُ دمعي والفؤاد عميد
وقلت إذا ما الخطبُ أشكل مَنْ لنا ... بإيضاحه يوماً وأنت فقيد
وأقلقني موت الكسائي بعده ... وكادت بيَ الأرضُ الفضاءُ تميد
وأذهلني عن كل عيش ولذة ... وأرّقَ عيني والعيون هُجود
هما عالِمانا أوْدَيا وتُخُرِّما ... وما لهما في العالمين ندِيد
فحُزني إن تخطر على القلب خَطرةٌ ... بذكرهما حتى المماتِ جديد

وهذه الأبيات فيها من حرارة العاطفة وجودة التعبير ما يُغيِّر في وجه كل من يُضعِّف شعر العلماء ، ولا نشير إلا إلى البيت الأخير الذي يتمثل فيه الصدق الفني بأحسن لفظ وأجمل معنى . فهو يُبرز حزن الشاعر على الفقيدين ويجعله مرتبطاً بالقلب ، ولا يطلقه إطلاقاً وإنما يقيده بحالة الذكر وعدم شرود الفكر ، في هذه الحالة ، وهي التي تطابق الطبيعة البشرية ، إذا خطرت على

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

قلبه خطرة من ذكر صاحبيه يتجدد حزنه ويكون كأنما فقدهما لتوّه وساعته ، وذلك مدى العمر وإلى نهاية الحياة . ولا أصدق من هذا الشعور ولا أبلغ من هذا التعبير .

ومن مراثي العلماء الشهيرة مرثية أبي الحسن ابن الأنباري في الوزير أبي طاهر محمد بن بقية لما صلبه عضد الدولة بن بُوَيه ، ومطلعها :

علوٌّ في الحيـــاة وفي الممات لحق تلك إحدى المعجزات

وكان ابن الأنباري هذا فقيهاً صوفياً واعظاً يتعاطى الأدب ، فلذلك ذكرناه مع أدباء الفقهاء ، ومرثيته هذه احدى ثلاث مراث أو أربع في اللغة العربية ليس لها نظير ، وقال الصلاح الصفدي فيها إنه لم يسمع بمثلها في رثاء مصلوب . وقيل إن عضد الدولة لما سمعها تمنى أن لو كان هو المرثي بها ولو مع الصلب . وكفى بهذا تقريظاً لأدب الفقهاء . ونظن أننا في غير حاجة إلى ايراد شيء منها لأنها معروفة وتوجد في كل ديوان .

ومن أطرف المراثي مرثية الشريف الحصني في ابن مالك النحوي التي يقول فيها :

يا شتاتَ الأسماء والأفعـــال بعد موت ابن مالك المفضال
وانحرافَ الحروف من بعد ضبط منه في الانفصال والاتصال
أَلَمٌ اعتراه أسكن منه حركاتٍ كانت بغير اعتلال
يا لها سكتةٌ لهمز قضـــاء أورثت طول مدة الانفصـال
رفعوه في نعشه فانتصبنـــا نصب تمييز كيف سير الجبال
صرفوه يا عظم ما فعـــلوه وهو عدل معرف بالجمـال
أدغموه في الترب من غير مثل سالماً من تغير الانتقـــال

وهي على هذا المنوال من كثرة التورية بالمصطلحات النحوية التي يُغرب فيها أحياناً ، ومع ذلك ، ومع ما في بعض أبياتها من زحاف ، فإن الصفدي أعجب بها وقال : ما رأيت مرثية في نحوي أحسن منها على طولها ، وشهادة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذا العالم الأديب لها قيمتها في هذا المقام. ولقد كان من أثر إعجابه بها أن نسج على طرازها قصيدة فائقة رثى بها أثير الدين ابن حيان النحوي الغرناطي المشهور منها قوله :

مات إمام كان في فنّه ... يُرى أماماً والورى من ورا
أمسى مُنادًى للبلا مفرداً ... فضمّه القبر على ما ترى
يا أسفا كان هدى ظاهرا ... فماد في تربته مضمرا
وكان جمع الفضل في عصره ... صَحّ ، فلما أن قضا كُسّرا
وعُرّف الفضل به برهة ... والآن لما أن مضى نُكّرا

وهي طويلة مثل سابقتها ولكنها سالمة من الزحاف ، إلا أنها في معانيها عالة عليها فالفضل للمتقدم على كل حال . ونحن لم نرو هاتين القصيدتين إلا على سبيل الإحماض والمضاهاة لنظائرهما من نظم الشعراء وإلا فلا يغيب عنا أن غرض الرثاء أبعد شيء من هذه الصناعة اللفظية والزخارف الكلامية .

ويحسن أن نختم هذا الباب بمقطعات وأبيات في الموضوع لأصحابنا الفقهاء بعد أن ألمنا إلى المراثي الطويلة ، فإن في بعضها ابداعاً وبلاغة يُستظهر بها عند المقارنة ويكونان حجة على المنكر . فمن ذلك قول القاضي التنوخي :

أأصون ماء العين من بعد امرئٍ ... قد صان منا في الوجوه الماء
يا قبره لم تحو جسماً ميتاً ... لكن حويت مكارماً أحياء

ومنه قول الزمخشري في شيخه أبي مضر :

وقائلة ما هذه الدرَرُ التي ... تَساقطُ من عينيك سِمْطَيْنِ سِمْطَيْنِ
فقلت لها الدرّ الذي كان قد حشا ... أبو مضر أذْني تَساقط من عيني

ومنه قول أبي بكر بن شِبْرِين في خامس بني نصر ملوك غرناطة :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بان العزاء فما الذي نُبديه في الحزن إلا بعض ما نُخفيه
يا أيها الغادي يحثُّ قَلوصه إيهٍ عن الخبر المُرجَّم إيهِ
أودى أمير المسلمين فكيف لا نأسى عليه وكيف لا نبكيه
قد كان للإسلام عينَ بصيرة فأصابت الإسلامَ عينٌ فيه

ومنه قول أبي علي اليوسفي :

مصابٌ لو ان الأرض نالَ أديمَها لَما أنبعتْ نهراً ولا أنبتت زهرا
ولو أنَّ آفاق السماء أصابها لَما أطلعتْ شمساً ولا أنزلت قطرا

هذه نماذج وألوان من تعازي العلماء ومراثيهم . ليس فيها ما يُنتقد عليهم إلا إذا انتُقِد مثلُه على غيرهم من الشعراء . وهي حرية بالإضافة إلى ما قدمناه من أقوالهم في أغراض الشعر الأخرى أن تنفي عنهم تهمة الضعف في الإنتاج الأدبي وتكمُّ أفواه المتقولين عليهم المتندّرين بكلمة هذا شعر فقيه ، فقد تبين أنها من الكَلِم المُلقاة على العواهن بغير نظر ولا تفكير ، وإن يبغ عليك قومُك لا يبغ عليك القمر .

عبد الله كنون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net